بريد الجمعــة

بريد الجمعــة

الجُمُعَة ■ ١٣ سبتمبر ٢٠٠٢ ■

إثراء
ع المعارف الرقمية

يكتبه: عبدالوهـاب مطاوع

هبوب الرياح!

ربما تتذكر بعض وقائع هذه القصة، لأنك كنت طرفا مهما فيها، فأنا رجل في بداية العقد السادس من العمر، نشأت في أسرة متوسطة بين أب موظف وأم ربة بيت، وشقيقة تكبرني بعام.. وقد مضت السنون، ووالدي يكافح لكي يوفر لأسرته الحياة الكريمة، وتزوجت شقيقتي والتحقت أنا بإحدى الكليات العملية، وفي صيف عامي الدراسي الأول سافرت إلى احدى دول جنوب أوروبا للعمل خلال الإجازة، فاستهوتني الحياة فيها، وقررت البقاء على أرضها.. وحزنت أمي لذلك كثيرا، وأنا الابن الوحيد لها.. وشعر أبي بالقلق على دراستي الجامعية.. لكني حاولت ارضاءهما بمواصلة الدراسة في هذه الدولة الأوروبية، والتحقت بالفعل بكلية عملية مناظرة لكليتي المصرية، وواصلت العمل والدراسة حتى تخرجت، وبدأت مرحلة الدراسات العليا، وفي هذه الفترة كان لي زميل مصري تزوج من سيدة من إحدى دول شرق أوروبا، وكانت زوجة هذا الصديق تلح عليّ دائما ان اتزوج واضع حدا لمشكلة وحدتي، وعرضت على الارتباط بشقيقتها المقيمة في بلدها الاصلي، ورتبت لي الالتقاء معها، ودراسة شخصيتها، وسافرت إليها بالفعل في إجازة فوجدتها فتاة جميلة وطيبة، وترغب بصدق في الحياة العائلية فتزوجتها، ورجعت إلى مقر عملي على أن تلحق هي بي حين تجد الفرصة لذلك، وصبرت هي على ظروف بلدها حتى استطاعت الحصول على جواز سفر ولحقت بي في الدولة التي اقيم وادرس بها.. وبدأنا حياتنا الزوجية معا في ظروف صعبة، نظرا لدراستي للدكتوراه، وعملي بأحد المكاتب المصرية، فتحملت ظروفنا، وكانت لي نعم الزوجة الصابرة القانعة حتى حصلت على الدرجة العلمية.. ولاحظت انه قد مضت ست سنوات منذ زواجنا دون ان تحمل زوجتي.. ولمست قلقها الشديد لذلك، فكانت كلما حدثتني في الأمر قلت لها إن الله لم يأذن لنا بعد بالانجاب.. واستوقفتها، وهي التي جاءت من دولة كانت تنكر الدين خلال فترة الحكم الشيوعي، هذه الاجابة كثيرا، وقالت لي إنها تعجب لما ابديه من عدم السخط على حرماننا من الانجاب.. واعتباره قدرا لا ذنب لاحد فيه، فكانت هذه النقطة بداية مناقشات طويلة بيننا عن القضاء، والقدر، والتسليم بارادة الخالق، وكانت تسألني فأجيبها بما أعلم، واستوضح ما لا اعرفه من رئيسي، وكان رجلا متعمقا في الدين، واعود إليها بالشرح والتفسير، إلى ان فاجأتني ذات يوم بأنها قد رتبت بالفعل مع رئيسي وزوجته دخول حظيرة الإيمان رسميا، ومضت السنوات.. وبعد مرور ١٢ عاما على زواجنا شعرت زوجتي بالانزعاج خوفا من تساؤلات أمي عن أسباب عدم الانجاب، وانا الابن الوحيد لها، وطمأنتها من هذه الناحية، وكنت قد تحدثت مع أمي بالفعل، وقلت لها إنني لااستطيع أن اتخلى عن زوجتي هذه ابدا، وهي الإنسانة التي وقفت إلى جواري في اصعب مراحل حياتي، وهجرت مركزها المرموق في بلدها الأصلي، وتركت أهلها ودنياها السابقة باكملها من اجلي.. كما ان اسباب عدم الانجاب لا ترجع كلها إليها فهناك كما قال لي الطبيب نسبة كبيرة منها ترجع إلى.. فسكتت أمي، ولم ترجع إلى هذا الحديث مرة أخرى.

وشغلت بالتفكير في وسيلة لغرس الطمأنينة في نفس زوجتي من هذه الناحية، وهداني تفكيري إلى ان اكتب لك منذ اثنى عشر عاما رسالة اقول لك فيها إنني وزوجتي لم ترزق بأطفال.. وانه لو كان هناك من خلال بريد الجمعة طفل يحتاج لمن يرعاه، فنحن على استعداد لذلك.. وبعد نشركم ردكم عليّ بأسبوعين نشرتم قصة طبيب سوهاج الذي لديه اربعة أبناء، ووجد في الصباح على باب منزله طفلا رضيعا سماه «خالد» ويريد من خلال بريد الجمعة أسرة لم ترزق بابناء لكي تتولى رعايته وتنشئته، فاتصلت بكم على الفور من الخارج، ورجوتك ان ترتب لي الحصول على هذا الطفل مع العلم بأنني لن استطيع العودة إلى مصر إلا بعد شهرين.. وطمأنتني على ذلك.

وعشت أنا وزوجتي هذين الشهرين، ونحن في قمة السعادة.. وقد بدأت اناديها على الفور بأم خالد، وبدأت هي تناديني بلقب «أبو خالد» وتشعر بمتعة كبيرة، وهي ترددها، وحضرت إلى القاهرة، والتقيت بك في مكتبك، وقمت بالاتصال بطبيب سوهاج تليفونيا، وقدمتني له ثم اعطيتني السماعة وتحدثت معه، وحين علم أنني سأعود بالطفل إلى مقر اقامتي بالخارج سألني في قلق: وكيف سأراه أنا، واتابع حالته.. إنني اريد ان اراه مرة كل ستة أشهر على الأقل!

وكم كانت صدمتي كبيرة حين عرفت باستحالة اصطحابي هذا الطفل الذي عشت انا وزوجتي معه في الخيال شهرين كاملين.. وسألتك متحيرا: ماذا سأقول لأم خالد حين ارجع إليها!

ووجدتك تترفق بي.. وتقول لي إن من الواضح ان هذا الطبيب الفاضل قد تعلق بهذا الطفل الذي احتضنه، وحماه من الضياع.. ويريد ان يطمئن عليه من حين لآخر، لكن هذه ليست نهاية المطاف، ولايستدعي الأمر الحزن.. ولسوف تحاول ايجاد حل اخر لي.. وبالفعل فقد رتبت لي لقاء مع مديرة بالشئون الاجتماعية بمبنى مجمع التحرير، ورحبت بي المديرة، وارسلت معي مندوبة إلى احدى دور الأيتام، وكانت معي زوجتي فرأينا طفلا سبحان الخلاق العظيم في جماله.. وسماحة وجهه والنظرة الطيبة في عينيه.. وروت لنا مديرة الدار قصته فعرفنا انه تعرض مع امه لحادث فماتت الأم، ونجا الطفل، ولم يستدل على شخصية أبيه، أو أمه منذ اكثر من عام.. وبطريقة تلقائية سألنا مديرة الدار عن الاسم الذي اختاروه له، وسجلوه في أوراقه، فإذا بها تجيبنا بأنه : خالد! وصرخت زوجتي من الفرحة حين سمعت الاسم.. أما أنا فقد ظننت في البداية انك قد رتبت مع مديرة الدار اختيار اسم خالد لهذا الطفل المحروم، «تلطفا» منك بنا.. لكني تبينت بعد الاطلاع على شهادة ميلاد الطفل المحررة قبل عام انه يحمل بالفعل اسم خالد منذ انضمامه للدار فتعجبت لتصاريف القدر التي حرمتنا من طفل سوهاج، ووهبتنا أخر من القاهرة يحمل الاسم نفسه.

وبعد إجراءات إدارية طويلة ادت إلى تأخير عودتي لعملي عشرة أيام عن الموعد المقرر حدثت المعجزة ورجعنا إلى مقر عملي وحياتي، ومعنا خالد وعمره ١٦ شهرا، ولن احدثك عن عمق السعادة والمرح والبهجة التي أضفاها على حياتنا هذاالطفل الجميل، ولاعن حجم اللعب والملابس التي تدفقت عليه.. لكن يكفي ان أقول لك فقط إنه قد اصبح كل شئ في حياة زوجتي.. ومنذ اليوم الأول خصصت له اجندة دونت فيها كل صغيرة وكبيرة تتعلق به وبصحته ومواعيد التطعيمات المختلفة. واسم كل دواء تناوله.. ودرجات حرارته على مدار الشهر.. الخ وعندما بلغ عامه الرابع الحقناه برياض الأطفال ثم بالمدرسة الانجليزية لمدة عامين، ثم بإحدى المدارس المصرية لكي يتمرس في لغة بلده، لمدة ثلاث سنوات، وكان يؤدي امتحاناتها بالقنصلية المصرية.

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره عملت بفتوى احد الشيوخ الاجلاء، بضرورة مصارحة الابن في هذه السن بحقيقة وضعه، فصارحته أنا وزوجتي على مضض بالحقيقة، وروينا له قصة وفاة أمه، وعدم التوصل إلى هويتها، وكيف اننا قد احتضنته، وتركت عنواني في الدار التي كان فيها عسى ان يظهر والده الحقيقي ذات يوم أو جده أو خاله، فلم يظهر أحد، ولهذا فلم اتركه، ولن اتركه، وسيظل ابنا لي إلى يوم الدين.

ولقد ثالنا نفسيا انا وزوجتي بعض الشيء خلال هذه الفترة، ونحن نرقب انعكاسات الحقيقة المؤلمة على نفس هذا الابن الصغير، لكننا تغلبنا على الموقف بتكثيف الحنان والرحلات والنزهات والمرح.

وفي الصيف الماضي هبت على حياتي الآمنة فجأة عدة عواصف تزامنت كلها في وقت واحد تقريبا، فلقد مرضت أمي مرضا شديدا ورحلت عن الحياة رحمها الله وشعرت بالحزن الشديد عليها. وخلال انشغالي بوداع والدتي اتصلت بي زوجتي وابلغتني انها قد لاحظت بعض الاهتزازات المريبة في رأس ولدنا ويديه، فنقلته إلى المستشفى حيث بدأت الفحوص والأشعات، وعدت إلى مقر عملي منزعجا. ليصدمني الطبيب صدمة قاسية بأن نتائج الفحوصات قد اكدت ان ولدنا مصاب بالفيروس المسبب لمرض الحصبة منذ صغره، لكنه كان ساكنا طوال هذه الفترة، ونشط فجأة فاصبحت نسبة شفائه وعلاجه ضئيلة للغاية، ونصح باجراء عملية لوضع انبوب معين يتم من خلاله حقن الصبي بدواء «روفيرون» مرتين في الاسبوع لكيلا تتدهور حالته اكثر خلال العمر المتبقي له من الزمان.

أما ثالثة العواصف فهي أنني وفي هذه الظروف الحزينة قد فقدت عملي بالمكتب المصري بالخارج الذي عملت فيه عشرين عاما، وبغير ابداء أية أسباب.

ولقد كنت ادفع للمستشفى نسبة من تكاليف العلاج، وثمن الأدوية وفقا لنظام التأمين الصحي المتبع هناك، فما ان علم المستشفى بفقدي عملي حتى اعفاني من دفع هذه النسبة على الفور، واما مدرسة خالد فلقد كان بها سلم كهربائي مجهز للمعاقين يصل للدور الأول فقط لوجود حالتين به، فتم مده إلى الدور الثاني حيث يقع فصل خالد.. ورتبت المدرسة ان يزور احد المدرسين، وثلاثة من زملائه من نفس الفصل، واثنان من الفصول الأخرى، مرة كل اسبوع ابننا خالد لكيلا يشعر بان المرض قد حال بينه وبين الدنيا.

انني حزين من اجل خالد، ومن اجلي ومن اجل زوجتي واتعجب لمفارقات القدر التي ترفقت بنا بعد الحرمان.. فوهبتنا هذا العزاء، ثم تجهمت من جديد في وجوهنا فأنذرتنا بقرب الرحيل.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مهما تجهمت السماء.. فلابد من لحظة تنقشع فيها السحب السوداء، وتلمع اشعة الشمس، فتطرد فلول الظلام والاحزان فترقب لحظتك المضيئة بإذن الله ياسيدي بعد هذه الرياح غير المواتية التي هبت على حياتك في الفترة الأخيرة، وثق بأن الله سبحانه وتعالى لن يخذلك ولن يتخلى عنك ابدا، وانت الذي كفلت طفلا يتيما محروما، وادخلت السعادة إلى قلبه، وحميته من الضياع، وإنما هي تقلبات الأيام، وشدائدها التي اعتصرت من قبل اهل الإيمان حتى هتفوا بصيحة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه والذين معه حين اشتد بهم الضيق والحصر والهول: متى نصر الله؟ فجاءهم البشير من السماء «ألا ان نصر الله قريب».

لقد تذكرت وانا اقرأ كلمات رسالتك هذه ما قاله ذات يوم الشاعر الانجليزي الغنائي الفريد تنيسون «١٨٠٩ - ١٨٩٢»، الذي كانت أشعاره تبث دائما الطمأنينة في النفوس:

إننا لانفهم شيئا
لكنه يسعني دائما ان اومن
بان الخير آت للجميع في نهاية الأمر
وكل شتاء لابد صائر إلى ربيع!

كما استعدت إلى الذاكرة ايضا ما قاله الشاعر العربي البهاء زهير:

لاتعتب الدهر في خطب رماك به
إن استرد فقد طالما وهبا
حاسب زمانك في حالي تصرفه
تجده اعطاك اضعاف الذي سلبا

ونحن لسنا في مجال محاسبة الزمن على شئ.. إنما فقط نتأمل تصاريف القدر ونتفكر فيها.

كما انك لم تحاسب زمانك على شئ من حرمانك من الانجاب وإنما تقبلت اقدارك بنفس راضية، وتسليم مطلق بإرادة الخالق جل شأنه.. وكان هذا التسليم، وهذه النفس الراضية هما مفتاح الحوار الطويل بينك وبين زوجتك الأجنبية الذي انتهى بكما إلى شاطئ واحد للإيمان.

فلقد طبقت من حيث لاتدري بهذا التسليم، ما كان ينصح به القديس فرانسيس داسيس اتباعه من أن يظهروا سلامهم النفسي للآخرين لكي يتساءلوا عما عمر قلوبهم براحة البال، وهذه الغبطة لعلهم يميلون ذات يوم إلى اختيار ذلك بانفسهم.

وها قد شاءت الأقدار ان تمتحنك باختبار جديد يتطلب منك ان تتعامل معه بالقدر نفسه من الإيمان والتسليم بارادة الخالق العظيم الذي تعاملت به من قبل مع محنة الحرمان من الإنجاب.. وما احسبك سوف تنكص عن اجتياز هذا الاختبار بنفس الصلابة والإيمان بإذن الله.

وما أحسب ان تجهم السماء وهبوب الرياح غير المواتية سوف يستمر في حياتك لزمن طويل.. فلقد حان وقت التعويض عن الاحزان بإذن الله.. ولربما كذبت الأيام أشد الظنون تشاؤما، ولربما صفت السماء وعادت البلابل للتغريد في حياتك على غير انتظار.

ولاعجب في ذلك والله سبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.. يخلق مالا تعلمون وهو على كل شئ قدير فلاتبتئس .. ولاتستسلم للقنوط.

وثق في كل الاحوال والظروف بان التجربة لم تذهب سدى.. وانها لم تعبر حياتنا بلا جدوى، فلقد فزنا بممارسة مشاعر وأحاسيس جميلة لم نكن لنعرفها لولا ان اراد الله.. وتعلقنا بالأمل في رحمته.. ولن نمل الرجاء فيه ابدا إلى ما لا نهاية.